الفصل الرابع

الخوف كمانع ودافع لتسوية الخلافات: مناقشة نظرية والحالة الإسرائيلية[٤٢]

نمرود روزلر[٤٣]

مقدمة

تكثر الأبحاث التي تتناول دور المشاعر في الصراعات الدولية، من ذكر مشاعر الخوف كقوة محركة للصراعات وتشكل بصورة عامة مانعًا نفسيًا صعبًا لتسويتها (Rothchild & Lake, 1998; Bar-Tal, 2001; Kelman, 2007). يضاف إلى ذلك أن الخوف يمكن أن يحرك عملية سياسية تهدف إلى تسوية الخلاف، كعنصر رائد في تغيير المواقف والإقناع. الزعم الرئيسي في هذا الفصل هو أن الخوف يمكن أن يعد عائقًا ودافعًا لتسوية الخلاف. وتحاول المناقشة التالية دراسة العوامل والظروف التي تفرق بين «دور» الخوف في الحالتين. ومن أجل دراسة هذا الزعم سأعرض مناقشة نظرية لمفهوم «الخوف» وآثاره على الصراعات، اعتمادًا على دراسات واسعة ومتعددة الإطارات من علم النفس، والعلوم السياسية والعلاقات الدولية. وبعد ذلك سأجري مناقشة تطبيقية (إمبريقية) للحالة الإسرائيلية، أدرس خلالها مكان الخوف في

(٤٢) هذا الفصل جزء من بحث أوسع ضمن مشروع العدل والسلام الدائم، المدعوم من EU's 7th Framework Programme.

(٤٣) شكري ليعقوب برطال على ملاحظاته الواعية ودانيال برطال وعرن هالفرين على المساعدة والأفكار التي ساعدتني أثناء الكتابة.

المجتمع اليهودي في إسرائيل في سياق الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني، كمانع لتسوية الخلاف من ناحية وكدافع لتسويته من ناحية أخرى.

الخوف وآثاره النفسية والسياسية

تقترح المداخل النفسية والسوسيولوجية في بحث المشاعر، تعريفات مكملة لمصطلح «خوف». هناك تعريفان يمكن أن يساعدا في فهم هذه الظاهرة متعددة الوجوه ودراسة تأثيراتها على تسوية الصراعات. وفقًا للمدخل النفسي، يشتمل الخوف على إحساس ذاتي بالقلق وعدم الهدوء، وهي تغييرات فسيولوجية يمكن أن يعبر عنها بالعرق والنبض السريع والتنفس السطحي، وأيضًا السلوك المصاحب لهذا الإحساس ـ العدوانية، التجنب أو الهروب (Darwin, [1872] 1965; Gray, (1987; Gullone, 2000; Öhman, 2008 . وفقًا للمدخل السوسيولوجي، يعرف الخوف ـ مثل المشاعر الأخرى ـ بأنه ظاهرة اجتماعية يعيشها الفرد في السياق الثقافي ـ الاجتماعي الذي يعرف الأوضاع التي يثيرها الخوف من ناحية، ويخلق مشاعر، وطرق تعبير وسلوكيات ذات صلة من ناحية أخرى. ويعتبر الخوف حالة اتصالية بين الأفراد يعرفها المجتمع وتهدف إلى خدمته (Hochschild 1979 Scruton 1986; Barbalet, 1998).

العامل الأساسي في تقليل الخوف هو التنبيه الذي يعتبر ويفسر لدى الفرد على أنه تهديد أو خطر. يمكن أن يكون هذا التهديد جسدي على الإنسان، أو اجتماعي على الإنسان ووضعه، أو تهديد رمزي لهويته الشخصية أو الجمعية، أو قيمه واعتقاداته. تدعي نظريات التقييم المعرفي (cognitive appraisal theories) أن الشعور بالخوف ينبع من اعتقاد ذاتي بوضع مهدد، ويحدث هذا في الغالب من خلال عوامل خارجية، مع مشاعر بعدم الهدوء، وعدم اليقين وعدم الحيلة، التي يمكن أيضًا أن تفسر سلوكيات مستمرة من التجنب أو الهروب (Jose, 1996; Scherer, 1997 & Smith & Ellsworth, 1985; Roseman, Antoniou) والدور الأساسي للخوف هو المساعدة

في بقاء واعتياد الفرد والمجموع على وضع معين، سواء على المستوى المادي أو المستوى الاجتماعي. على المستوى المادى، يخدم الخوف منظومة سلوكيات الإنسان الأساسية،التي تشكلت عبر إجراءات الاعتياد على التطور، وغايتها هي زيادة احتمالات بقائه والبقاء منه. (Öhman, 2008 LeDoux, 1996; Gullone) ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن الخوف له أيضًا أبعاد اجتماعية بكونه يفسر أحيانًا من خلال المجتمع من أجل الحفاظ على مطابقة المجتمع مع المواقف والقيم والمعايير والهيكلية الاجتماعية الشائعة فيه (Scruton1986). المهام التكيفية للخوف تجعله شعورًا ذا أهمية بالغة للإنسان والمجتمع، وهذه بدورها يمكن ـ كما سأقترح لاحقًا ـ أن تؤدي إما إلى الحفاظ على المواقف والسلوكيات المؤيدة لاستمرار الصراع أو إلى إيجاد أفكار جديدة يمكن أن تعمل على حله. وهناك عنصر آخر يجعل من الخوف ظاهرة ذات تأثيرات معرفية واجتماعية ملموسة، وهو المنظومة الفسيولوجية المسئولة عن ردود فعل الخوف.

هناك من الباحثين (LeDoux, 1996; Öhman, 2008) من أشاروا إلى المنظومة التلقائية لتشغيل الخوف، التي تتجاوز عملية التفكير وتنتج ردود فعل غير واعية، وسريعة ومهيمنة. المنطقة الموجودة بالمخ المسماة بإسم اللوزة (amygdale) مسئولة على ما يبدو عن تشغيل الجهاز من خلال سيطرته على منظومات ـ جسد رئيسية. المحفزات الخارجية يمكن أن تثير الجهاز بسهولة، وحينما ينتبه ـ يكون ذا تأثيرات مسيطرة على خطوات معرفية مثل المنظور وإعداد المعلومة، والذاكرة واتخاذ القرارات (LeDoux, 1996 - 2006 Jarymowicz & Tal Bar) هذه التأثيرات تجعل الشعور بالخوف أداة فعالة للتأثير الاجتماعي والسياسي ـ سواء لتغيير المواقف أو للتأثير في اتجاه عمل معين.

تعرض دراسات علم النفس الاجتماعي التي تتناول تغيير المواقف منظومات مختلفة يمكن من خلالها أن تؤدي الرسالة المثيرة للخوف إلى الإقناع لصالح موقف

أو عملية معينة Janis & Feshbach, 1953; Leventhal, 1970 Rogers, 1975; de Hoog, Stroebe, de Wit, 2007.

تظهر النتائج الرئيسية التي تجمعت عبر السنين أن الإقناع يكون تفاؤليًا حينما تثير الرسالة مستويات خوف متوسطة، وأن درجة الإقناع تتأثر بمتغيرات وسيطة مثل مضمون الرسالة، ومصدر الرسالة ومتلقي الرسالة Higbee, 1969; Rogers, 1975; Dillard, 1994 وهناك أيضًا باحثون في مجال الفكر السياسي والبحث السياسي أشاروا إلى اتجاهات مختلفة يؤثر فيها الخوف على الفرد والمجموع (انظر مناقشة ذلك فيما بعد).

في المجال السياسي لا يؤثر الخوف فقط كظاهرة شعورية فردية. فهو يمكن أيضًا أن يعد علاقة رابطة أو جوًا سياسيًا واجتماعيًا، ويمكن أيضًا أن يكون شعورًا جمعيًا. إضافة إلى ذلك، كون المشاعر الفردية تنشأ بتأثير إطار وقواعد اجتماعية وثقافية مشتركة، فمن الطبيعي أن يكون شعورًا معينًا سمة لأغلب الأفراد في المجتمع، سواء بصورة عفوية أو من خلال اتجاهات اجتماعية موجهة Bar-Tal, 2001; Markus & Kityama, 1994 وهناك اتجاهات مختلفة تشير إلى مشاعر اجتماعية تتسم بها مجموعة اجتماعية وتشكل بذلك عنصرًا ملموسًا في الإنتاج والحفاظ على هويتها وسلوكها الجمعي. Bar-Tal, de Rivera, 1992; Barbalet, 1998; Halperin & de Rivera, 2007. على سبيل المثال توجد مجتمعات معينة في جنوب ووسط أمريكا، تتسم ببيئة شعور الخوف بسبب «الإرهاب» الذي تمارسه عليهم الحكومة لكي تبقي على السيطرة السياسية Corradi, Fagen & Garretón, 1992; Green, 1994. ولقد أشار الباحثون إلى التوجهات الجمعية للخوف وإلى تأثيراتها على مجتمعات أخرى، مثل المجتمع الإسرائيلي (Bar ـ Tal, 2001) والمجتمع البولندي (Petersen, 2002).

طبيعة الخوف وتأثيراته المهيمنة كشعور فردي وجمعي، تجعل منه ظاهرة ملموسة في العلاقات بين الشعوب بصورة عامة والمجتمعات التي تعيش صراعًا مستمرًا بصورة خاصة.

الخوف كمانع لتسوية الخلافات

أشار مفكرون كلاسيكيون في المجال السياسي أمثال هوبس Hobbes, [1651] 1986 ومورجنتاو (Morgenthau, 1985)إلى أهمية الخوف وقوته المحركة في العلاقات بين الشعوب والمجتمعات بصورة عامة. زعم (Thucydides, [431 B.C.E] 1986) أن الخوف كان أساس الحرب بين أثينا وسبارطة، بينما يقول والتس (Waltz, 1979) أن الخوف هو أساس عدم الثقة بين الدول وهو الذي يدفعها إلى إيجاد توازن قوي بينها[44].

ومع ذلك يميل البحث التقليدي إلى التعامل مع المشاعر عامة كعنصر غير مطلوب لكنه ممكن ويجب محاولة تقليص تأثيره، وهكذا يملي المنطق الحكم السياسي (على سبيل المثال Callan, 1997 1993Arkes,).

وتعتقد ميتزن (Mitzen, 2006) في مجال الفكر السياسي أن الدول التي تعيش صراعًا متواصلًا تفضل بصورة متناقضة مواصلة الصراع بسبب التهديد الذي يمكن أن تشعر به على أمنها الوجودي إذا توقف الصراع. وفي هذه الحالات، يصبح جزءًا رئيسيًا في تعريف الهوية والأهداف القومية، ولا يعد سببًا معرفيًا ثابتًا مطلوبًا لإحساس الأمان الوجودي. ومن أجل تجنب وضع التهديد الوجودي للهوية، يمكن للدولة أيضًا بناء خطاب مستمر للخطر Mearsheimer, 2001 Campbell, 1998. المجتمعات التي تعيش طول الوقت في حالة صراعات وحروب، توجد توجهات خوف جمعي خشية من التهديد والأخطار المتواصلة المهددة للأفراد والمجتمع الذين يعيشون هذه السياقات (Bar-Tal, 2001) وفي حالات الصراع المستمر، يلعب الخوف الجمعي أدوارًا وظيفية في المجتمعات التي تعيش فيه ويتيح تعاملًا جيدًا مع الضغط والتوتر. ويدخل الخوف الأفراد والمجموع في حالة استعداد دائم خشية من الأخطار المحتملة،

(٤٤) لاستعراض مشاعر الخوف بصفة خاصة وعلى المشاعر بصفة عامة في الفكر السياسي، انظر Crawford, 2000.

ويركز الانتباه على الدلائل والمعلومات التي تشير إلى التهديد المحتمل، وتزيد من التآلف والتكاتف خشية التهديد الخارجي وتدفع الأفراد إلى العمل ضد العدو باسم المجتمع وحمايته. ومع ذلك، يظهر الخوف عنصر حافظًا ومقويًا للصراعات ومانعًا لتسويتها، لأنه يؤدي إلى انحرافات تحيزية تجاه الصراع وتجاه الطرف الثاني، ويخلق ركودًا معرفيًا وميلًا لتجنب المخاطر، ويؤدي إلى تبرير السياسات الموجودة (Crawford, 2000; Bar-Tal 2001; Huddy, Feldman, Capelos & Provost 2002).

يؤدي الخوف والتهديد على مستوى الفرد والمجموع، إلى التحيزات في اختيار المعلومة التي يحصل عليها الإنسان، وفي ذكرها، وإعدادها والتفسيرات التي يمنحها لها. فالتحيزات المعرفية تؤدي إلى اعتبار سلوكيات الخصم والأحداث الغامضة، إشارة تهديد وتؤدي إلى عدم الشرعية، والشكوك وعدم الثقة تجاهه (إيريان 1999; Bar-Tal, 2001). يمكن أن تصعب هذه التحيزات إجراءات التعلم المطلوبة لتغيير الاعتقادات والمواقف التي يتمسك بها صانع القرارات وجماعته، والتركيز على أفعال ونوايا الخصم التي تعتبر سلبية. اعتبار الخصم كيانًا سلبيًا يشجع أعمال العنف تجاهه لكي يمنع الأخطار المتوقعة منه، ويتيح إلقاء تهمة هذه الأعمال عليه ويقلل من دافعية الدخول معه في مفاوضات والتسوية. فعدم الثقة والشكوك تجاه الطرف الثاني يمكن أن توجد حافزًا لإخفاء معلومة عن الطرف الثاني، الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى إمكانية إجراء مفاوضات مشتركة تؤدي إلى تسوية تلبي الاحتياجات والمخاوف الأساسية للطرفين.

عدم الثقة والخوف من أن يقوم الطرف الثاني بعدم الوفاء بالتزاماته في عملية السلام والتسوية واستغلال ضعف إصابة اللاعب، يمكن أن تمنع الاستعداد لتغيير الاعتقادات ورؤية إمكانية التوصل إلى حل متفق عليه عبر المفاوضات وتشجيع الاستخدام المسبق للقوة ضد الخصم. وكذلك، فإن هذه التحيزات يمكن أن تعمي

عيون صناع القرار حتى لا يعتبروا أن استمرار الوضع الحالي يؤدي بهم إلى طريق مسدود، أو العكس - إلى كارثة.

يمكن أن تؤدي المستويات العليا من الخوف الفردي والجمعي إلى جمود معرفي والانغلاق على جهاز الخوف الاجتماعي، الذي يهدف إلى الحفاظ على قيم واعتقادات المجتمع الموجودة (Scruton, 1986). ولا يؤدي الجمود فقط إلى الإبقاء على الاعتقادات والسياسات الحالية، وإنما يؤدي أيضًا إلى إعاقة التعلم وإنتاج اعتقادات جديدة ووظيفية في تسوية الخلاف، ووضع أهداف جديدة، وطرق سياسية لتطبيقها واستعداد لتقديم تنازلات. ويمنع الجمود أيضًا الأمل والاعتقاد بإمكانية حل الصراعات بالطرق السلمية. فالخوف يؤدي إلى الارتباط بالأوضاع المعروفة وتجنب الدخول في مخاطرات وعدم يقين، بينما يتطلب تغيير المواقف، وتسوية الخلافات مبادرات جديدة وتحمل مخاطر زفران وبارطال Jarymowicz & ;Bar-Tal, 2001;2003 Bar-Tal, 2006 ويمكن أن يشجع الخوف الاستخدام التلقائي لأنظمة التعامل الماضية، مثل إجراءات عنيفة تبقي العودة التلقائية إليها دائرة الخوف الشيطانية، والجمود واستمرار الصراع.

الجمود المعرفي والارتباط بالماضي الذي يحدث نتيجة لتوجهات الخوف الجمعي، يمكن أن يقلل من احتمالات ظهور زعيم ملتزم بحل الصراع بالطرق السلمية. إضافة إلى ذلك، إحساس الخوف وعدم اليقين يقللان من القدرة المطلوبة من الزعماء للتعامل مع المشاكل العامة التي تحدثها عقدة القيم أثناء عملية السلام وحسمها (بر سيمان طوف 1996). تتضمن عقدة القيم (value complexity) مصالح وقيمًا متنافسة يمكن أن يستخدم كل منها كضغط لتحقيق الثاني (George, 1980) . مطلوب من صناع القرار خلال عملية السلام، في حالة عقدة القيم، الحسم بين المصالح والقيم المختلفة التي يتطلب التوازن بينها إعادة تفكير: السلام، الأمن، المناطق، الأيديولوجية والموارد الاقتصادية، تعد كلها نموذجًا على القيم والمصالح

من هذا النوع (برسيمان طوف 1996)، كما أن إحساس الخوف وعدم اليقين يقلل من القدرة على الحسم بينهما وتبني أنماطًا سلوكية جديدة (زفرن وبر طال، 2003).

يمكن أن يؤدي منظور التهديد والخطر إلى تفضيل رد الفعل العدواني والعنيف (Gray 1987) الذي يعتبر طريقًا مبررًا للمقاومة، وهذا يمكن أن يزيد دائرة العداء أمام العنصر الذي يعتبر مسئولا عن التهديد. كما أن رد الفعل العنيف وتبريره يمنعان أيضًا الاستعداد لتغيير ـ المواقف والتسوية، ذلك لأن رد الفعل يعد بالتالي استثمارًا ماديًا ونفسيًا إيجابيًا في إدارة الصراع ويبرر ثمنها المادي والنفسي. ويمكن أيضًا أن يستخدم الزعماء نظرية خوف المواطنين بتلاعب للحصول على تأييد استمرار سياسة المواجهة الحالية (Kelman, 2007).

إضافة إلى التأثيرات المعرفية الثلاثة المذكورة أعلاه (Lebow, 2005) يدعي ليبو أن النتائج السلوكية للخوف في المجال السياسي يمكن أن تؤدي إلى أن تتحقق التهديدات والمخاطر التي تثيرها ذاتها وبهذا يتم الإبقاء على دائرة الصراع. وتوجد أبحاث مختلفة أشارت إلى أن تعبيرات التهديد والخوف مرتبطة بالنظرة اليمينية للمحافظة السياسية (Jost, Glaser, Kruglanski & Sulloway, 2003) وتزيد من الآراء القديمة، العرقية وعدم التسامح (Feldman & Stenner, 1997; Stephan & Stephan, 2000; Duckitt& Fisher, 2003). يمكن أن تزيد هذه الرؤى والمواقف من تأييد استمرار الصراع ومعارضة أي محاولة لتسويته من خلال الحوار مع الطرف الثاني. ويمكن أن يشترك الخوف الجمعي مع معضلة الأمن الجماعي[45] في حالة الصراع المستمر، سواء كعامل أو كنتيجة، بل ويستغل أيضًا من جانب مبادرين عرقيين مهتمون بالحفاظ على العنف في الصراع وتصعيده (Mueller, 2000) كما حدث في العراق بعد الاحتلال الأمريكي. (Barak, 2007).

(٤٥) تنسب معضلة الأمن لوضع فوضوي في المجال الدولي، حينما تقوم دولة معينة بعمليات لصالح أمنها، يمكن أن تهدد أمن الدولة الأخرى ــ الأمر الذي يؤدي إلى سباق تسلح، وصراع بل وحتى حرب. (Posen 1993) (Mitzen, 2006) أقترح توسيع هذا المفهوم ليشمل أيضًا العلاقات بين الطوائف التي تعيش الصراع.

الخوف كدافع لإمكان تسوية الخلافات

يقول جانيس ومان (Janis & Mann, 1977) وكراوفورد (Crawford, 2000) أن المستويات المتوسطة من الخوف يمكن أن تؤدي إلى الجمع المتبني لمعلومة ذات صلة وبذل التفكير في البحث عن طرق عمل مناسبة للتعامل مع التهديد. ومثلهم، ماركوس وزملاؤه (Marcus & MacKuen, 1993) يزعمون أن المشاعر بالذات تساعد في التفكير، والاشتراك والوعي السياسي، لأن الناس يعتمدون على مشاعرهم للحصول على معلومة استراتيجية هامة، كما أن المشاعر تحسن من قدرة الناس على القيام بتواصل مع البيئة ويستخدمون ذلك للإشارة إلى متى تتطلب تحيزاتهم الحالية إعادة دراسة. وبصورة أكثر دقة، يتيح الخوف للاعبين السياسيين فرصة لخلق قناعة لصالح مواقفهم من خلال «منظومة الإشراف» (surveillance system) وهذه المنظومة تشير للإنسان على الخطر في بيئته وتدفعه إلى وقف نشاطاته التقليدية، وإعادة التفكير وتقييم آرائه وسلوكه من خلال إعداد معلومة سياسية متعمقة وتزيد من إمكانية دراسة طرق رد جديدة[46] Marcus & MacKuen,1993 وتعزز جهود برادر هذا الزعم (Brader, 2005) وتشير إلى أن رسائل الخوف يمكن أن تؤدي إلى تغيير في الخيار السياسي.

المستويات العليا من الخوف تدفع صناع القرار للنظر إلى التهديد بصورة أكثر دقة ويميلون إلى تغيير سياستهم وفقًا لذلك (Jervis, 1976) وتحديدًا يمكن أن يؤدي الخوف المصحوب بنظرة السيطرة والقدرة العالية، إلى انفتاح معرفي. فهو لا يمكن فقط أن يساعد في وقف كارثة تقترب وتشجيع وقفها عن طريق الحوار، وإنما يضاف أيضًا إلى الثمن الباهظ والألم المستمر الذي يحدثه الصراع. وبحساب

(٤٦) تعد منظومة الإشراف جزءًا من منظومة المعلومات الشعورية المكونة أيضًا من منظومة التحليل التي تتم من خلال الاستعانة بها الأحكام السياسية النمطية (Marcus & MacKuen, 1993).

التكلفة والفائدة الذي تقوم به الأطراف، يمكن أن يضاف الخوف إلى جانب التكلفة ويؤدي بصناع القرار إلى إعادة تقييم وضعهم.

يمكن أن تكون التجربة الذاتية السلبية التي تصاحب الخوف في الغالب، عاملًا آخر يشجع الأطراف على الدخول في عملية دراسة تغيير اعتقاداتهم ونظرياتهم بشأن النظام الدولي، وبشأن لاعبين آخرين في الصراع، وبخصوص أهدافهم وغاياتهم في الصراع ووسائل تحقيقها (Tetlock, 1991; Levy, 1994; Bar-Siman-Tov 2001). إن الحاجة إلى تقليص هذا التعبير السلبي وزيادة الإحساس بالأمن، يمكن أن تساهم في رغبة ودافعية الأطراف للبحث عن اعتقادات جديدة، وتغيير اعتقاداتهم الحالية وتبني سياسة جديدة. ويمكن أن يستخدم الزعماء رسائل تتضمن مستويات معتدلة من الخوف، ليس فقط لتجنيد الرأي العام لمواصلة المواجهة، وإنما أيضًا لحشد التأييد لتغيير السياسات إلى اتجاه تسوية الصراع وبناء إجماع على ضرورة تنفيذ سياسة التسوية. يمكن أن تركز هذه الرسائل على الأخطار التي يواجهها المجتمع وعلى الثمن الذي يدفعه إذا لم يتم التوصل إلى حل متفق عليه للصراع. ويمكن للجانب الثالث أن يستخدم نظرية الخطر الكامن على باب الخصوم، إلى جانب عرض طريقة للتعامل السياسي معها لكي يدفع نحو نضج المفاوضات: الاعتراف بوضع الطريق المسدود المؤلم والمتبادل، والاعتراف بالكارثة المحدقة ونظرية أن هناك وسيلة للتوصل إلى حل سياسي متفق عليه (Zartman 2000). إضافة إلى إمكانية إحداث تغيير في الاعتقادات لصالح تسوية الصراع بالطرق السلمية،فإن الخوف يمكن أن يساهم أيضًا في عملية اعتدال de-escalation الصراع من خلال ترسيخ معارضة استمرار أعمال العنف ضد الطرف الثاني. يثير الخوف نظرة زائدة للمخاطر الحالية (Lerner & Keltner, 2001) ويخلق ميلًا إلى تجنب تحمل مخاطر أخرى.

ويبدو أن هذه هي أسباب توافق الخوف مع التأييد المنخفض للعمليات العسكرية ضد الطرف الثاني في حالات الصراع (Skitka, Bauman, & Aramovich Morgan,

2006; Huddy, Feldman & Cassese, 2007) وبخلاف الرغبة في تجنب المخاطر، فإن الخوف مرتبط بالتطلع إلى إيجاد سبب آمن (Frijda Kuipers, & ter Schure, 1989 Roseman, 1994). ووفقًا لذلك فإنه يمكن أن يدفع الأفراد في المجتمع الذي يعيش الصراع إلى تقييم استمرار الصراع كمخاطرة وإمكانية تسويته كفرصة لإيجاد بيئة آمنة.

بين الخوف كمانع والخوف كدافع لتسوية الصراعات

يبدو أن الخوف شعور مهيمن له آثار مركبة. فكثير من الأبحاث النفسية عن الخوف تشير إلى ردود الفعل السلوكية المحتملة إما بالتجنب أو بالعدوان (flight or fight) لكن على حد علمي لا يوجد تناول تفصيلي للظروف التي تظهر فيها أي من هذه الردود، التي تختلف بحكم طبيعتها بصورة جوهرية. ففي المجال السياسي، تعتقد بعض الأبحاث أن الخوف يؤدي إلى الجمود وإلى الانغلاق الجمعي، بينما يدعي البعض أنه يؤدي تحديدًا إلى انفتاح أكبر على معرفة سياسية جديدة. وكذلك وجد في أبحاث التأثيرات السياسية للخوف في الصراعات، أن تأثيره على الاستعداد للتنازل، على سبيل المثال، تأثير مركب في البحث الذي تم في أسبانيا عن المفاوضات مع منظمة الباسك المتمردة ETA, وجد تناسق بين الخوف والاستعداد لإجراء مفاوضات، لكن وجد أيضًا بين الخوف ومعارضة المفاوضات (Paez, 2006). وفي الحالة الإسرائيلية، بعد اندلاع انتفاضة الأقصى تعاظمت النظرية التي ترى أنه يجب على إسرائيل أن ترد بقوة على العنف الفلسطيني لخلق ردع وخوف في الجانب الفلسطيني (حرق الوعي). وبالتالي كان يمكن أن يؤدي الردع والخوف إلى وقف العنف ودفع الفلسطينيين إلى الاستعداد لتقديم تنازلات كثيرة جدًا، لكن هناك شك كبير في أن ذلك قد تحقق بر سيمان طوف، لافيه، ميخائيل وبر طال;2005, Hafez & Hatfield, 2006 وأيضًا ظهرت في الجانب اليهودي الإسرائيلي

نتائج متداخلة بالنسبة للعلاقة بين الخوف وتأييد المفاوضات والتنازلات (انظر المناقشة فيما بعد).

وبالطبع، في كثير من الأحيان يعتبر الخوف عائق نفسي لتسوية الخلافات بالطرق السلمية، نظرًا لأنه يمكن أن يقود إلى الجمود المعرفي، وتحيز النظريات وتبرير السياسات الموجودة. ومع ذلك فإنه يمكن أيضًا الإشارة إلى منظومات يعد من خلالها دافعا لتغيير المواقف والسياسات في الصراع، مثل: إيجاد إجراءات جاهزة ودراسة. هذا ولا تختلف الآراء على أن الخوف يعد ظاهرة شائعة سواء في المجال الشخصي أو في المجال الجمعي بين المجتمعات التي تعيش في صراع عنيف ومتواصل.

لكن يطرح هذا السؤال متى يوجد عائق لتسوية الخلافات ومتى يوجد دافع لحلها؟ أو بمعنى آخر: كيف يمكن استخدام الخوف لتحريك تسوية الصراع؟

اعتمادا على الأبحاث في هذا المجال، يمكن اقتراح تعريف أن الخوف يعد عائقًا أمام عملية السلام، إذا توافر واحد أو أكثر من الشروط التالية:

- يكون الصراع طويلًا ومستمرًا ويتضمن عداءً شديدًا، وعنف وعدم ثقة ويتركز على تهديدات الطرف الثاني والمخاطر المترتبة على تغيير السياسات في الصراع.
- حينما تعزز وتبرر مقترحات التعامل مع الأخطار والتهديدات استمرار السياسات الحالية، التي تساهم في الإبقاء على الصراع.
- الخوف عنصر موحد للمجتمع ومحفز لباقي أعضائه على مواصلة المواجهة؛
- يعد الصراع موضوعًا وجوديًا تبدو أي محاولة لتسويته خطرًا على وجود وهوية المجتمع والأفراد المكونين لهذا المجتمع.
- في ظل عدم وجود اتصال مباشر مع الطرف الثاني، فإن فهم نواياه ودوافعه يعتمد على صورته كعدو غير إنساني لا يمكن إجراء حوار معه.

- مستوى الخوف والتهديد يكون عاليًا جدًا لدرجة أن المجتمع والأفراد فيه يصمتون أمام أي مبادرة لتغيير اعتقاداتهم ومنظورهم للصراع.

ومن ناحية أخرى، يمكن اقتراح عدة ظروف تجعل الخوف دافعا لتسوية الخلاف بالطرق السلمية.

- يكون الثمن الذي تدفعه الأطراف بسبب الصراع باهظًا جدًا، ويضاف الخوف كعنصر يحسم الكفة في اعتبارات التكلفة والفائدة لصالح تغيير سياسات الصراع.
- يجسد الخوف للأطراف الطريق المسدود المؤلم والمتبادل والكارثة المتوقعة لهم، ويمكن أن يقنعهم بتبني أفق سياسي جديد.
- يستخدم مشكلي الرأي العام رسائل تبث الخوف في مستويات متوسطة وتركز على الثمن والأخطار التي يضعها استمرار الصراع أمام المجتمع.
- القائد الذي لا يلتزم باستمرار الصراع يستخدم الخوف بمستويات متوسطة في الفترة التي تتيح تبادل السلطة، مثل منظومة الانتخابات.
- يصاحب الخوف اعتبار قدرة السيطرة على الوضع عالية وكذلك اقتراحات التعامل معه، بما في ذلك تغيير الاعتقادات المسيطرة والسياسات القائمة.

الخوف واستخداماته: السياسية في المجتمع اليهودي في إسرائيل

يوجد الخوف الجمعي كسمة أساسية للمجتمع اليهودي ـ الإسرائيلي في وضع صراع مستمر مع جيرانه وهو متأثر من مشاهد الماضي الكارثية المتمثلة في المذابح، والاضطهادات والطرد، التي وصلت إلى ذروتها في أحداث النازي (برطال 2007). تخلق الأحداث العنيفة في الصراع اليهودي ـ العربي ومشاهد الماضي الكارثية التي انطبعت في الذاكرة الجمعية، مشاعر الخوف الوجودي التي

تتعاظم أحيانًا من خلال زعماء يشحذون التهديدات المختلفة في رسائلهم إلى المجتمع (إريان 1999، بر طال2007). ويرجع الخوف الجمعي في المجتمع اليهودي الإسرائيلي إلى التفسيرات المعطاة للصراع الآني عبر الذاكرة الجمعية لأحداث الماضي (Bar ,Tal, Nets -Zehngut & Drori2008, Halperin). يحظى الخوف الجمعي بتعبيرات عن أبعاد مختلفة عن الحياة الاجتماعية في إسرائيل: في الاعتقادات الاجتماعية، وفي استطلاعات الرأي العام، وفي الأدب، والكتب الدراسية، وفي وسائل الإعلام العامة. تتضمن أبرز الاعتقادات الاجتماعية في إسرائيل ـ التي يشيع فيها استخدام تنوع بالغ من القرارات والتقديرات والأحكام والسلوك الشخصي ـ الاعتقادات الخاصة بعدم الثقة، التي تتجلى في القلق الذي يعبر عنه جزء كبير من الجمهور، أعرب 60 % ـ 70% من اليهود في إسرائيل عن قلقهم بشأن أمنهم الشخصي وأمن الدولة، منذ السبعينيات وحتى 1994 (1999;إريان 1982 ,Stone).

الاعتقادات المتعلقة بخطورة التهديد الذي يتربص بإسرائيل، مثل خطر الحرب القادمة مع الدول العربية التي أقلقت أكثر من 80% من اليهود الإسرائيليين في عام 1982 و1973 1977 (Stone) والخوف الذي تجلى في الثمانينيات وحتى 1998 في الرأي الذي اعتقده 75% ـ 50% من اليهود في إسرائيل، بأن هدف العرب هو احتلال دولة إسرائيل، وأن نصفهم اعتقدوا أن هدف العرب هو أيضًا إبادة اليهود الذين يعيشون فيها إريان (1999) وينعكس الخوف الجمعي أيضًا في جعل الأمن قيمة ورمزً ساميًا ثقافيًا في إسرائيل، يقدم المبرر الأساسي للقرارات، والسياسات والنشاطات، وفي الاعتقادات الاجتماعية التي تقضي بأن العالم المحيط بإسرائيل يعتزم الإضرار بها (إريان ;1999 برطال 2007) كذلك يعكس أيضًا النثر والشعر وأدب الأطفال والكتب الدراسية، الخوف وعدم الثقة في وجود اليهود، وكذلك أيضًا وسائل الإعلام التي أكدت، وبخاصة حتى السبعينيات، مضامين الحصار، والاضطهادات والأخطار التي تتربص بإسرائيل من جانب العرب (برطال 2007).

توجه الخوف في المجتمع اليهودي في إسرائيل يغذي الخطاب السياسي ويستخدم في حشد الأصوات، كما حدث في المعارك الانتخابية عام 1969 ـ 1999 ـ 2001 ـ ومن المهم أن استخدام الخوف لاحتياجات الإقناع السياسي في إسرائيل، تم سواء من خلال مرشحين أرادوا منع مواصلة العملية السياسية مع الفلسطينيين أو من خلال أولئك الذين أرادوا دفعها (انظر المناقشة فيما بعد).

انتفاضة الأقصى والخوف في المجتمع اليهودي في إسرائيل

في بداية القرن الحادي والعشرين ـ أعطى فشل قمة كامب دافيد، باشتراك باراك، وعرفات وكلينتون في يوليو 2000، إشارة لبدء جولة العنف الأخيرة في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني (بدءًا من نهاية سبتمبر من نفس العام) التي أدت إلى نشوء الربط الاجتماعي بالخوف البالغ (برطال وشربيط 2005). عبر عن هذا الربط في استطلاعات الرأي العام التي تمت في نفس الفترة وعكست قوة التهديد الذي شعر به المجتمع اليهودي في إسرائيل. تجلى الخوف على المستوى الشخصي في الخشية من ركوب المواصلات العامة، والخروج من المنزل والتواجد في الأماكن العامة (Sharvit, 2002 & Klar, Zakay). وتشير الاستطلاعات التي تمت في نفس الفترة إلى أن 85 % من اليهود في إسرائيل أعربوا في عام 2001 عن قلقهم أو قلق بالغ من احتمال أن يقعوا هم أو أقاربهم ضحية عملية إرهابية. في عام 2002 وصل الخوف إلى القمة، حينما أعرب 92% من العينة عن الخوف على أمنهم الشخصي وأمن أفراد أسرهم (Arian, 2001, 2002)[٤٧]. على المستوى الجمعي عبر عن عدة مخاوف في الاستطلاعات: الخوف «من أن أغلب الفلسطينيين لم يوافقوا على وجود دولة إسرائيل وسيبيدونها لو استطاعوا»، تجاوب مع هذا الخوف 72 % في استطلاع مقياس السلام (peace index مارس 2001)؛ الخوف من حرب قريبة بين إسرائيل

(٤٧) انظر أيضًا استطلاعات مقياس السلام (peace index) والاستطلاعات التي نفذها مشروع المناعة القومية في جامعة حيفا في تلك السنوات.

وجيرانها العرب، حيث إنه في عام 2002 ـ على سبيل المثال قال 77 % من عينة الإسرائيليين اليهود أن هناك احتمالاً متوسطًا أو عاليًا لتنفيذها (Arian, 2002)؛ وهناك مخاوف أخرى، مثل الإحساس العالي بالتهديد على الأمن القومي الإسرائيلي، والخوف من حق العودة الفلسطيني والخوف من فقدان الأغلبية اليهودية في إسرائيل (انظر استطلاعات قياس السلام أغسطس 2003 ونوفمبر 2003 وديسمبر 2003). وبالطبع أدت الأحداث في هذه الفترة ـ فشل محادثات السلام واندلاع انتفاضة الأقصى، وكذلك أيضًا عرض الفلسطينيين وعرفات على أنهم مسئولون وحيدون عن ذلك ـ إلى نظرية التهديد الخطير والشعور المتزايد بالخوف (برطال وشربيط 2005؛ برطال 2007)؛ وظل الخوف سمة للمجتمع اليهودي في إسرائيل، كما ظهر ذلك في الاستطلاعات التي جرت في السنوات 2004-2007 والتي أعرب فيها 65 ـ 85% من الإسرائيليين عن خشيتهم من الحرب أو من إرهاب ضد إسرائيل و77% ـ 87% اعتبروه خطرًا استراتيجيًا، و75% ـ 70% أعربوا عن الخوف الشخصي من «الإرهاب».

الخوف كمانع لتسوية الخلافات في المجتمع اليهودي في إسرائيل

يمكن أن نجد في المجتمع اليهودي في إسرائيل كثيرًا من الظروف التي عددناها سابقًا، يعد الخوف فيها مانعًا لتسوية الخلاف. الصراع الإسرائيلي الفلسطيني هو صراع مستمر ويتضمن كراهية شديدة بين الأطراف واندلاع أعمال عنف راح ضحيتها كثير من الضحايا. وكذلك تركز انعدام الثقة والخوف في نوايا العرب والفلسطينيين العدائية، وبخاصة تجاه اليهود في إسرائيل، كما تجلى ذلك في استطلاعات الرأي.

أشارت البحوث التي أجريت بين اليهود في إسرائيل إلى أن مستويات الخوف الأعلى تؤدي إلى الجمود المعرفي وعدم الاستعداد لتحمل المخاطر، والذي يتجلى في التأييد المنخفض للمفاوضات والتنازلات المطلوبة لتسوية الصراع الإسرائيلي الفلسطيني

بالطرق السلمية. في استطلاعات بين عينات محلية من اليهود الإسرائيليين في أعوام 1996 ـ 1999 وجد جوردون وإيريان (Gordon & Arian, 2001) معامل ارتباط سلبيًا عاليًا (0.55) بين المواقف المعبرة عن الخوف والمواقف المعبرة عن الاستعداد لدفع الثمن المطلوب لتسوية الصراع مع الفلسطينيين بالطرق السلمية. ويتضح من تحليل معطيات البحوث السابقة التي قام بها إيريان (1999) بين يهود إسرائيليين في الأعوام 1987 و1993 أنه كلما كان اعتبار التهديد الذي شعروا فيه أنهم متداخلون بدرجة عالية جدًا، كلما حدث انخفاض في الاستعداد للدخول معهم في مفاوضات. إضافة إلى ذلك، وجد البحث الذي أجري عام 1986 تناسقًا واضحًا بين مستوى التهديد والاستعداد التنازل عن الأراضي. إضافة إلى ذلك وجد في هذا البحث علاقة وطيدة بين مستويات عليا جدًا من الخوف وبين المواقف «المتشددة» (إيريان 1999).

اكتشف برطال وزملاؤه، الذين درسوا مقدمات ونتائج توجهات الخوف الجمعي في إسرائيل، أنه توجد علاقة إيجابية بين الخوف الجمعي ووجهات نظر «متطرفة» أو على العكس علاقة سلبية بين الخوف الجمعي وتأييد عملية السلام. بالإضافة إلى ذلك، ينعكس في البحث تأثير الخوف على إعداد المعلومة المتعلقة بالصراع الإسرائيلي ـ العربي والإسرائيلي الفلسطيني وعلى اتجاهات اتخاذ القرارات بصورة تخلق مانعا أمام تنفيذه: أشار ذوو وجهات النظر «المتطرفة» أكثر من ذوي وجهات النظر «الحمائمية» إلى تأثير أحداث الصراع المرتبطة بالخوف على حياتهم الشخصية وعلى الأهمية التي يجب أن تعلقها الحكومة الإسرائيلية عليها حينما تتخذ القرارات.

هناك بحث حديث أجرى بين عينة ممثلة لليهود في إسرائيل Maoz & McCauley 2009 يشير إلى علاقة سلبية بين الخوف الجمعي ورؤيته للصراع كمبلغ صفر وبين تأييد التسويات. وبصورة مشابهة أشار بحث سابق Maoz & McCauley, 2005 إلى علاقة بين مواقف سلبية تجاه التسويات مع الفلسطينيين بين عينة ممثلة لليهود في إسرائيل، وبين رؤية تهديد الفلسطينيين الذي يعتمد على اعتبار الصراع كمبلغ صفر.

يمكن أن تفسر العلاقة الموجودة في استطلاعات الرأي العام بين الخوف الجمعي ومعارضة المفاوضات وتسويات إنهاء الصراع بالطرق السلمية،استخدام مرشحين معارضين للعملية السلمية مع الفلسطينيين، لرسائل تثير الخوف الذي يشيعونه عشية الانتخابات. يعرض تورجوفنيك (Torgovnik, 2000) و(وولفيسفيلد فيمان 1999) استخدام الليكود ومرشح رئاسة الوزراء عنصر الخوف، حيث قادوا معارضة اتفاقات أوسلو. في هذه المعركة الانتخابية استخدم بنيامين نتنياهو بصورة مغالى فيها موضوعات تثير الخوف، لما تحمله من معانٍ رمزية ومعيارية. فقد اتهم المرشح الخصم، شمعون بيريز، بالرغبة في تقسيم القدس، واحتلت هذه المشكلة حوالي 16% من برامج الليكود الدعائية (وولفيسفيلد فيمان 1999). على عكس مستقبل الضفة الغربية وقطاع غزة، ساد في تلك الفترة إجماع سياسي وشبه معياري كامل بالنسبة لأبدية القدس كمدينة موحدة عاصمة لإسرائيل. طرح هذا الموضوع، الذي كان إشكاليًا في طبيعته، من أجل خلق خلاف مصطنع انطلاقًا من الخوف على مستقبل القدس. وكذلك، عرض نتنياهو والليكود عملية أوسلو على أنها عملية تؤدي إلى سلام بدون أمن وأكدوا على التهديدات والأخطار الكامنة فيه على المدى القريب (وولفيسفيلد فيمان1999; Torgovnik, 2000). هناك أيضًا فرق جوهري في درجة تناول بيريز ونتنياهو للعمليات «الإرهابية» وفقدان الأمن الشخصي: ذكر حزب العمل، الذي أيد اتفاقات أوسلو، هذه المشكلة فقط في 7% ـ من رسائل انتخاباته، بينما ذكرها الليكود، الذي عارض اتفاقات أوسلو، تقريبًا في 25% من رسائله (وولفيسفيلد فيمان1999 2000 Torgovnik).

وهناك أيضًا موضوع استخدمه نتنياهو ومؤيدوه في انتخابات عام 1996 وهو دور الفلسطينيين مواطني إسرائيل في عملية اتخاذ القرارات السياسية في الدولة. من وجهة نظرهم عرضوا تهديد أن هذه الجماعة هي التي ستحسم نتائج الانتخابات، كما حسمت الكفة في الكنيست لصالح اتفاقات أوسلو. وهدف استخدام هذه

الرسالة إلى زيادة الخوف بين المواطنين اليهود من تغيير طبيعة إسرائيل وهويتها اليهودية (Torgovnik 2000).

بين الخوف كمانع والخوف كدافع لإمكانية تسوية الخلاف

في الخطاب السياسي في إسرائيل كما يظهر من استطلاعات الرأي ومن الأبحاث التي عرضتها أعلاه عن استخدام الخوف في المعارك الانتخابية في إسرائيل، يبرز دور الخوف كمانع أمام تسوية الخلاف الإسرائيلي الفلسطيني بالطرق السلمية. إضافة إلى ذلك، وأيضًا انطلاقًا من عاصفة الصراع، قد تنفذ عدة شروط يمكن أن تؤدي بالخوف إلى تحريك تسوية الخلاف بالطرق السلمية.

وعلى عكس المعركة الانتخابية عام 1996 التي برز فيها الفرق في الاستخدام الذي قام به المرشح الذي أيد عملية السلام مع الفلسطينيين في مخاوف الجمهور اليهودي في إسرائيل، في مقابل الاستخدام الذي قام به المرشح الذي عارض العملية ـ يشير (مرمور وفيمان 2001) إلى التشابه في استخدام مشاعر الخوف الذي استخدمه المرشحون من كلا الجانبين في الخريطة السياسية للدعاية الانتخابية عام 1999 وعام 2001 ـ ودرس الباحثون عمق الاستخدام الذي تم في التوجيه الشعوري في المعركة الانتخابية عام 1999. أحد القياسات التي تمت كان استخدام تعبيرات «الإرهاب» في الرسائل الدعائية ـ استخدام أحد أهدافه الأساسية لإثارة الخوف من أجل الإقناع السياسي. ظهر في البحث أن الحزبين الكبيرين ـ العمل والليكود ـ اللذين أراد كل منهما أن يتبع سياسة مغايره بشأن المفاوضات مع الفلسطينيين ـ كلاهما استخدم بكثرة هذه الوسيلة 39%: من رسائلهم الدعائية استخدمت فيها تعبيرات «الإرهاب» (مرمور وفيمان 2001).

في المعركة الانتخابية عام 2001 تم استخدام الدعاية المثيرة للخوف من خلال مرشحين لرئاسة الوزارة ـ أريئيل شارون، الذي عارض تقديم التنازلات التي اقترحت

على الفلسطينيين في مؤتمر كامب دافيد، وإيهود بارك، الذي قاد المفاوضات واقترح تقديم التنازلات المشار إليها. عرضت رسائل باراك «تهديد ما بعد» ارتقاء شارون للسلطة، على أنه تدهور في العلاقات مع الفلسطينيين يؤدي إلى حرب شاملة مع الدول العربية. في رسائل شارون عرض الأشخاص الذين أعربوا عن الخوف من أضرار «الإرهاب» والنيران على منازلهم، واتهموا باراك بقبول حق العودة الذي سيحل بكارثة على إسرائيل. وفي رسائل الطرفين المرشحين عرضت عمليات وأصابات كثيرة، وأسلحة وحرب، وتم استخدام الألوان كالبحر وكأنها تبعث على الكآبة وبموسيقى درامية هدفت إلى زيادة الإحساس بالخوف (مرمور وفيمان 2001).

في البحث الذي أجرته (روزلر 2005)، درست استخدام الخوف كمانع أو كدافع لإمكانية تسوية الخلافات،في إطار الخطاب السياسي في إسرائيل، وذلك بالنسبة لتسوية الخلاف مع الفلسطينيين في فترة المواجهات العنيفة الإسرائيلية الفلسطينية في السنوات 2003-2004 حيث اتسمت هذه الفترة بالعنف الزائد الذي أثار خوفًا بالغًا من ناحية وجهود سياسية لتسوية الخلاف أو إدارته بطريقة تعاونية لمستوى العنف من ناحية أخرى. يعتمد البحث على تحليل نوعي للخطاب السياسي من خلال دراسة المواد التي بحثت مستقبل الصراع، والتي نشرت ثلاثة برامج سياسية توسطت النشاطات السياسية في تلك الفترة. وتضمن البحث مقابلات مع شخصيات كبيرة ترأست كل منها الجماعات السياسية.

في البداية أتناول الخلفية باختصار، وبعد ذلك أتوسع في النتائج التي ظهرت في هذا البحث بالنسبة لاستخدام الخوف كمانع لتسوية الخلافات.

على الرغم من واقع الصراع العنيف والصعب مع الفلسطينيين، وعلى الرغم من الخوف الزائد بين اليهود في إسرائيل في السنوات 2003 ـ 2004، فقد بدأت تظهر في عام 2003 مبادرات سياسية من جانب اليسار الصهيوني وأدت إلى استئناف النقاش حول مستقبل الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. ومن هذا المنظور الزمني الجوهري،

برزت إمكانية استخدام وسائل إقناع مختلفة، وعلى رأسها رسائل الخوف، من أجل تبرير المخرج السياسي من هذا الوضع، ومن ناحية أخرى جعل استخدام الخوف لمنع هذه الاقتراحات.

ومن بين الحركات الكثيرة التي عددها اليسار الصهيوني في إسرائيل، برز في النقاش الجماهيري حركتان: «القائد الوطني» و«مبادرة جنيف»، كلتاهما عرضتا مبادئ لتسوية شاملة دائمة مع الفلسطينيين، تعتمد على المفاوضات مع الطرف الآخر الفلسطيني. وقف آنذاك أريئيل شارون، رئيس وزراء إسرائيل في تلك السنوات، على رأس معسكر اليمين المعتدل والوسط السياسي ورد بطرح برنامج الانفصال الذي لم يهدف إلى تسوية الصراع وإنما إلى إدراته فقط (بر سيمان طوف 2009). اعتمد برنامجه على مبادرتين: إقامة عائق فاصل بين إسرائيل والضفة الغربية وانسحاب أحادي من قطاع غزة وشمال الضفة (شارون 19 ديسمبر 2003؛ بر سيمان طوف وميخائيل 2005) في البداية بدأ الصراع السياسي من اتجاه اليمين المتطرف ضد تغيير الوضع في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، وضد خطة الانفصال (باحور نير وكوهين 14 أكتوبر 2003، هاتسوفيه 15 مارس 2004). ومن الحركات المختلفة في هذا الجانب من الخريطة السياسية، كان مجلس الضفة الغربية أحد أبرز النشطاء في تلك الفترة وطرح أجندة واضحة. كانت أهدافها الرئيسية دفع وترسيخ الكيان الاستيطاني في الضفة الغربية وقطاع غزة والعمل على تطبيق السيادة الإسرائيلية على هذه المناطق وإجهاض الاتفاقات السياسية التي تضر بوحدة البلاد (روط 2005).

إلى هنا تنتهي الخلفية ومن هنا تبدأ نتائج البحث: على غرار نتائج أبحاث مرمور وفيمان 2001 وجد في هذا البحث أن كل البرامج السياسية ـ سواء أرادت دفع تسوية الصراع، وإدارته أو استمرار وجوده ـ استخدمت رسائل الخوف في البرامج الثلاثة انطلاقًا من إدراك لقوة هذه الوسيلة على الإقناع، وقالت العينة أن اختبار الواقع الإسرائيلي هو الذي قادهم في اختيار هذه الرسائل. إضافة إلى ذلك وجدت

فروق واضحة في شيوع استعمال الخوف في مضمون الرسائل التي نشرها كل برنامج في إطار الخطاب السياسي. تقوي هذه الفروق من الشروط التي عرضت قبل ذلك، في المناقشة النظرية التي تناولت الخوف كمانع أمام تسوية الخلافات أو كمحرك لتسويتها.

قام مجلس الضفة الغربية وغزة، الذي تبنى دفع عملية الاستيطان في المناطق، والحفاظ على الوضع السياسي ومنع الاتفاقات التي تضر بسلامة البلاد ووحدتها ـ باستخدام الخوف لكي يوقف مقترحات تسوية الصراع أو إدارته. لذلك فقد استخدم الخوف بمستويات عليا جدًا وبالقدر البالغ جدًا: ظهرت رسائل الخوف في 78% ـ من وثائقه كادعاء وحيد أو أحد الادعاءات الرئيسية. وكذلك أيضًا احتوت رسائل المجلس على تهديدات أكدت على الأخطار الوجودية النابعة من أعمال الطرف الثاني والمخاطر المتعلقة بتغيير سياسة إسرائيل. وكان التهديد الأمني تهديدًا شائعًا جدًا في وثائق حركة اليمين وظهر في 90% ـ منها. والتهديدات الأكثر شيوعًا في هذا المستوى هي تهديد «الإرهاب»، والتهديد الوجودي لإسرائيل وتهديد قدرة الجيش الإسرائيلي وقدرة إسرائيل الردعية وقدرتها على الصمود. هناك أيضًا رسائل بارزة للخوف قام بها مجلس الضفة الغربية وغزة، بررت الأخطار المرتبطة بالتنازلات للفلسطينيين بأسباب أيديولوجية وسياسية، وأكدت على التهديد الذي يحوم حول وحدة الجمهور اليهودي في إسرائيل نتيجة لتغيير سياسات الصراع. ووفقًا لذلك ظهر تهديد فقدان ثروات على الأرض في 59% من الوثائق التي فحصت، وكانت أكثر التهديدات شيوعًا هي التهديد بأن اليهود سيخلون من منازلهم وتهديد وحدة البلاد. ظهر التهديد من نتائج غير مرغوب فيها لإسرائيل في المفاوضات، في 29% من وثائق حركة اليمين وتطرق أساسًا إلى التهديد الناجم عن تنازلات بدون مقابل أو تحت تهديد السلاح، والتهديد النابع من تكرار أخطاء الماضي. في 27% من وثائق مجلس

الضفة الغربية وغزة وفي لقاء مع ممثله، تم التركيز على التهديدات، لكن ما إن اقترحت الحلول - حتى تركزت على الإبقاء على الوضع الحالي في المناطق وتبريره.

كانت غاية عملية الانفصال التي عرضها شارون، ربط الخوف بتطوير سياسة إدارة الصراع التي حاول تطبيقها. لذلك كان عليه أن يستخدم الخوف سواء كمانع أمام مشروعات التسوية الشاملة مع الفلسطينيين أو كدافع لتنازلات أحادية الجانب. ووفقًا لذلك استخدم المبادرون بمشروع الانفصال الخوف بدرجة أقل، سواء من حيث مستويات الخوف أو من حيث شيوع رسائل الخوف في وثائق الانفصال. وظهر الخوف كزعم وحيد أو أساسي في 60% من وثائقه، وفي أغلب الحالات ظهر كادعاء رئيسي، لكنه ليس الوحيد 45 %. واستخدام الخوف كإمكانية لإدارة الصراع، لكن ليس تسويته، وتجلى ذلك في التركيز على المزاعم التي ادعت أنه لا يجب ترك الوضع السياسي كما هو، ولا بد من تقليل الاحتكاك مع الفلسطينيين من خلال خطوات أحادية الجانب تتمثل في الخروج من مناطق في الضفة الغربية ومن مجمل قطاع غزة ومن خلال وضع عائق طبيعي بين إسرائيل والفلسطينيين. إلى جانبها عرضت أيضًا المزاعم التي ادعت أنه يحظر البدء في مفاوضات سياسية مع الفلسطينيين على إنهاء الصراع طالما استمرت أعمال العنف من جانبهم، لأن هذا الأمر سيعتبر شرعية للإرهاب. وأكدت التهديدات التي قام بها مبادرو الانفصال المخاطر الأمنية والسياسية التي تضعها أعمال «الإرهاب» الفلسطينية أمام إسرائيل. لقد ظهر تهديد «الإرهاب» في كل وثائق خطة الانفصال وتم التأكيد عليه من خلال ممثلها في اللقاء، وظهر التهديد من النتائج غير المرغوبة لإسرائيل في المفاوضات في أكثر من نصفها تقريبًا.

ولأول مرة تقدم نتائج البحث عن استخدام البرامج اليسارية (مبادرة جنيف والإحصاء القومي) والمقابلة مع ممثل مبادرة جنيف، رؤية بحثية عن الصورة التي يمكن أن تستخدم بها رسائل الخوف في دفع تسوية الخلاف بالطرق السلمية.

لقد وجدت رسائل الخوف فعلًا في وثائق البرامج اليسارية، لكن بشيوع مستويات منخفضة قياسًا بالمجموعتين الأخريين. في ثلث الوثائق تقريبًا (32%) كان الخوف بين المزاعم الرئيسية ـ لكنه ليس الوحيد ـ وذكرت رسائل خوف كأحد المزاعم تقريبًا في ثلثي الوثائق (68%). وحينما ندرس مضامين رسائل الخوف التي استخدمت في وثائق برامج اليسار، ومضمون اللقاء الذي تم مع ممثل مبادرة جنيف، يمكن أن نرى كيف أنها تؤكد المخاطر والتهديدات الكامنة في استمرار الصراع إلى جانب التركيز على إمكانية وقدرة التعامل معها من خلال تسوية الخلاف بالطرق السلمية. هكذا على سبيل المثال ينتشر التهديد الأمني أيضًا في وثائق البرامج اليسارية وظهر في 84% منها، لكن تم في إطاره التركيز على التهديد بالعنف من طرفي الصراع، وأضيف اقتراح بالتعامل معه من خلال تغيير السياسات لصالح عملية سياسية، على سبيل المثال: «بعد ثلاث سنوات من إسالة الدماء المتبادلة، كان هذا هو أول إثبات جدي على وجود عناصر جادة بينهم، يمكن التوصل معهم إلى تسوية» لقاء مع يوسي بيلين 15 اكتوبر 2003 وظهرت بعده، من حيث الشيوع، مستويات التهديد الذي يتعرض له أغلب اليهود إذا لم يتم تبني حل الدولتين، والتهديد الديموغرافي الذي عبر عنه في النموذج التالي: «لقد أساء الجانبان فهم أن هناك ضرورة للتوصل إلى حل مقبول لدى الأطراف في نفس المشاكل، من أجل إنهاء المواجهات العنيفة فورا؛ وتعيين خط حدود ثابت، ومستقر ومحمي بين إسرائيل وفلسطين، وإبعاد التهديد المتصاعد للدولة ثنائية القومية» (مبادرة جنيف، بدون تاريخ).

هناك أيضًا تهديد آخر شائع، ظهر في 32%من وثائق البرنامج، وهو تهديد أن استمرار الاحتلال سيضر بأسس الديموقراطية والأخلاق في إسرائيل: إما أن نعيش تقريبًا في دولة عربية، أو أن نفرض بطرق القمع والاستبداد سلطة الأقلية اليهودية على أغلبية غير يهودية، وبهذا نصبح دولة معزولة وموبوءة، أو أن نتخلى بالسلام عن سيادتنا على المناطق الفلسطينية (عوز 17 أكتوبر 2003).

يشير بحث مرمور وفيمان (2001) وبصورة أكثر تفصيلًا أبحاث روزلر (2005) إلى أن الجماعات والمرشحين الذين يرغبون في دفع تسوية الخلاف الإسرائيلي الفلسطيني يستخدمون الخوف. ويظهر من البحث أن استخدام هذا العنصر كمانع لتسوية الخلاف، يتسم بمستويات عالية من رسائل الخوف، وعرض تهديدات ومخاطر من الجانب الآخر ومن تنازلات في إطار المفاوضات معه. في مقابل ذلك يتسم استخدام الخوف كدافع لإمكان تسوية الخلاف، بمستويات أكثر انخفاضًا من رسائل الخوف والتركيز على التهديدات المتعلقة باستمرار الصراع، إضافة إلى عرض أفق سياسي تفصيلي للتعامل معها من خلال تغيير السياسات الحالية وتحقيق سلام شامل مع الطرف الثاني.

الخلاصة

عرض هذا الفصل مناقشة نظرية لدور الخوف سواء كمانع أو دافع لتسوية الخلافات ومناقشة إمبريقية للحالة الإسرائيلية. ودرس الفصل الظروف التي يمكن أن يوجد فيها للخوف مانع للمفاوضات ومن ناحية أخرى ـ دافع لتطويرها. على عكس الرأي السائد، القائل بأن الخوف مانع فقط في ظروف الصراع المستمر، أقترح هنا أنه حينما يكون مصحوبًا بنظرية القدرة على التعامل مع الوضع من خلال مقترحات لتنفيذ سياسة جديدة لتسوية الصراع، حينما يركز على المخاطر وثمن استمرار الصراع، وحينما يستخدم في مستويات متوسطة ـ يمكن أن يؤدي الخوف إلى تأييد تسوية الصراع والتنازلات المترتبة على ذلك. ودرست التكهنات النظرية من خلال البحوث التي تمت بين المواطنين اليهود في إسرائيل، الذين يعيشون في صراع متواصل ويتسم بمستويات عليا من الخوف الشخصي والجمعي.

ويظهر من المناقشة النظرية والعملية الطبيعة المركبة للشعور بالخوف ـ فهو شعور أساسي ذو أهمية بالغة لبقاء الإنسان والمجتمع الذي يعيش فيه. واتضح أيضًا

أن هذا الشعور مجدٍ في خلق تغيير في المواقف (De Hoog et al., 2007) ومع ذلك فإن هناك عدم وضوح بشأن الظروف التي تحدد النتائج السلوكية للخوف في أوضاع مختلفة. وبصورة مشابهة، وأيضًا في شأن الصراعات العرقية والدولية عامة والصراع الإسرائيلي الفلسطيني خاصة، وجد الخوف كمتغير له تأثير مركب على تأييد أو معارضة تسوية الصراع (Paez2006; Rosler. Halperin & Gross, 2009).

الصراع الذي يعيشه المجتمع اليهودي في إسرائيل، يغطي كثيرًا من الظروف التي ذكرت كقائدة لمشاعر الخوف: فقد شبه الصراع الإسرائيلي الفلسطيني بأنه صراع عنيد، يتضمن أعمال عنف متكررة يروح ضحيتها كثير من الضحايا الأمر الذي يثير الكراهية البالغة. وهو يعتبر كلعبة المبلغ صفر وكصراع وجودي شامل، رئيسي في حياة الأفراد والمجتمع وغير قابل للحل (بر طال 2007). واستمرارًا لذلك وجدت بين اليهود في إسرائيل اعتقادات اجتماعية تكون أخلاقيات الصراع، الذي هدف إلى مساعدة في التعامل مع التحديات التي يضعها الصراع. تتضمن هذه الأخلاقيات، من بين ما تتضمنه، النظرة السلبية جدًا للطرف الثاني والاعتقادات التي تبرر أهداف المجتمع وتتناول أمنه والأخطار المتربصة به (بر طال 2007)، ونتيجة لذلك فإن الصراع الإسرائيلي الفلسطيني يضع تحديًا صعبًا أمام محاولة تسويته، سواء بسبب تاريخ العلاقات بين الأطراف أو بسبب نظرياتهم واعتقاداتهم. ومع ذلك، فإن هيمنة الخوف في المجتمع اليهودي في إسرائيل، تجعله أيضًا دافعًا ومحركًا ممكنًا لتسوية الخلاف، إذا توافرت الظروف المناسبة. وحينما يصل الصراع إلى طريق مسدود، وبعد اندلاع أعمال العنف التي تبقى بلا حسم، وزيادة سوء الوضع الداخلي أو الدولي لأحد الأطراف، وطرح مبادرة استئناف المفاوضات أو عرض مخطط لاتفاق سلام بينهما - يمكن أن يشق الطريق إلى الاستخدام الكفء للخوف في تسوية الصراع.

إضافة إلى الأبحاث التي تشير إلى علاقة بين معارضة العملية والتنازلات المطلوبة لتسوية الخلاف الإسرائيلي الفلسطيني، عرض في هذا الفصل بحث درس كيف يستخدم الخوف سواء كمانع أو دافع ممكن لتسوية الصراع. أظهر هذا البحث، الذي تم في فترة استمرار المواجهة العنيفة إضافة إلى طرح أفكار جديدة حول مستقبل الصراع،أن اللاعبين السياسيين ذوي الأهداف المعارضة حول مستقبل الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، استخدموا جميعًا الخوف، لكن بدرجة شيوع متغيرة وبتركيز على تهديدات مختلفة، وفقًا لمبادئهم وأهدافهم. أشار ممثلو البرامج الذين أدلوا بأحاديث في البحث إلى تعقد العلاقة بين الخوف وتأييد التنازلات لصالح تسوية الخلاف، واقترحوا مشاعر أخرى تضاف إلى المقارنة.

شيوع استخدام رسائل الخوف من أجل الإقناع السياسي الذي يتضح من البحث، هو أمر طبيعي ومطلوب للمجتمع الذي يشهد فيه الأفراد كيف استخدمت التهديدات المحدقة بهم في أثناء اندلاع العنف في الصراع، ويدركون بصورة دائمة الواقع من حولهم على أنه واقع خطير. اثنان من العينة في البحث ـ ممثل خطة الانفصال وممثل مبادرة جنيف ـ أعربًا أيضًا في الحديث معهما عن الإحساس باليأس بين الجمهور اليهودي الإسرائيلي في تلك الفترة، الذي لم يتح اللجوء إليه عبر الرسائل التي تعرض رؤية لمستقبل أفضل. وفي مقابلهما، وتحديدًا ممثل مجلس الضفة الغربية وغزة قال في حديث معه أن الجماهير في إسرائيل لم تفقد الأمل في السلام، وعلى الرغم من كل شيء فإنه ما زال مستعدًا لأن يدفع فيه ثمنًا باهظًا. وعلى حد قوله، الأمل بالذات والاستعداد للتسوية هي أفكار كامنة في الإنسان بصورة غير عقلانية تقريبًا. وعلى الرغم من أنه في ضوء الوضع في المنطقة، كان من الممكن أن تعارض الجماهير أي خطة تتضمن تنازلات، وما زال مجلس الضفة الغربية وغزة يجد صعوبة في إقناع الجمهور اليهودي الإسرائيلي بعدم فائدة التنازل. وتبرز أيضًا

في أقوال المتحدثين الآخرين هذه الضرورة غير المنضبطة، في الأمل الذي تطرق إليه ممثل حركة اليمين.

يبدو أنه على الرغم من جدوى رسائل الخوف، إلا أن هناك حالات فيها لا يوجد بها ما يكفي لخلق إقناع سياسي والتغلب على الحاجة إلى الأمل، الذي يعد ضرورة إنسانية طبيعية. تتطلب الرسائل التي تهدف إلى بعث الأمل، بحكم ماهيتها ظروفا مثل: تمثيل نفسي لأوضاع مستقبلية، وفعالية، ومرونة معرفية واستعداد لتحمل المخاطر Tal Bar& Jarymowicz 2006 ـ وهي ظروف يعد وجودها غير ممكن في المجتمع الذي يعيش في صراع صعب ومتواصل. لكن حتى في المجتمع اليهودي في إسرائيل، وبعد أربع سنوات من العنف الصعب والجمود السياسي، برزت اتجاهات مفاجئة لتأييد متزايد للتنازلات من أجل تحقيق السلام، وطرح خطط سياسية تتضمن تنازلات عن أهداف سياسية مختلفة (Arian 2003) ويرد تحقيق السلام، الذي يعد أحد الاعتقادات المكونة للأسطورة اليهودية الإسرائيلية في الصراع (برطال 2007)، على الحتمية الطبيعية لوجود الأمل والتفاؤل. ينعكس التطلع إلى الأمل أيضًا في قيمة السلام، الذي يعد واحدا من أهم قيمتين للجمهور الإسرائيلي. حيث يعبر عن السلام في التصريحات السياسية منذ ميثاق الاستقلال وحتى الآن، وفي الأغاني التي تعبر عن تطلع الجمهور الإسرائيلي إلى تحقيقه (إيريان 1999; Shamir& Shamir, 2000)

لذلك يمكن اقتراح أنه من خلال الدمج بين الرسائل المثيرة للخوف من استمرار الصراع، إضافة إلى الرسائل التي تبعث الأمل الواقعي في تحقيق السلام، ومن خلال عرض خطط تفصيلية لتحقيقه وفهم أبعاده المتنوعة والمركبة، يمكن إيجاد إقناع لصالح تسوية الخلافات بالطرق السلمية ولصالح التنازلات المطلوبة لذلك، سواء في الحالة الإسرائيلية الفلسطينية أو في حالات أخرى. ويمكن أن تشجع الرسائل من هذا النوع الجمهور على جمع معلومات جديدة وإجراء تغييرات في النظريات الحالية للخصم، والصراع والطرق الممكنة لإنهائه بالطرق السلمية.

ويقترح باحثون في المجال السياسي اتجاهًا فكريًا شبيهًا: يزعم بليت Blight, 1990 أن الفكر المسبق والإحساس بالمسئولية في المجال السياسي يؤديان، إضافة إلى الخوف، إلى رد فعل تكيفي. بينما يزعم نادو وزملاؤه Nadeau, Niemi & Amato, 1995 أن الدمج بين نظرية التهديد والإحساس بالأمل، هو وحده الذي يمكن أن يؤدي إلى تغيير في المناظير وفي التعامل البناء، هذا لأن التهديد بلا أمل، يمكن أن يؤدي إلى عدم اهتمام وعدم دراسة، والأمل وحده يمكن أن يؤدي إلى تفكير الأماني (wishful thinking). يبرز أيضًا مكان الأمل إلى جانب الخوف، في نظرية النضج (Zartman, 2000) التي تقول بأن أطراف الصراع يكونون مستعدين للمفاوضات حينما يقترب الخوف من كارثة وتكون نظرية الطريق المسدود مؤلمة ومتبادلة، حينئذ يشعرون بالأمل في التوصل إلى حل متفق عليه في المفاوضات. ومن أجل ترسيخ هذا الاتجاه الفكري لا بد من إجراء بحوث إمبريقية تدرس التأثير المشترك للخوف والأمل على الأفراد في المجتمع الذي يعيش صراعًا دمويًا متواصلًا.